# الفصل الأول
# واقع النظام الأسرى

## أوَّلاً : واقع النظام الأسرى لدى غير المسلمين :

لكى نستطيع الوقوف على جلية الأمر فى هذه القضية ، لا بد لنا من التعرف على عنصرين أساسيين : أحدهما : طبيعة نظرة المجتمعات ( مسلمة وغير مسلمة ) للمرأة كشريك فعَّال فى تكوين الأسرة .

**والثانى** : فلسفة الأسرة كنظام اجتماعى لدى هذه المجتمعات أيضاً على مر العصور ، وهو ما نريد مناقشته على النحو التالى :

**أولًا** : واقع النظام الأسرى لدى غير المسلمين :

**( أ ) المرأة** :

لقد كانت نظرة تلك المجتمعات على اختلاف مِلَلِهَا ونِحَلِهَا – على مر العصور – نظرة تتسمُ بالعُنف والعَسْف والقسوة ، ومجانبة الصواب فى الغالب الأعم من الأحيان ، أما إذا حظيت المرأة بنظرة إنصاف ، وذلك بطبيعة الحال فى القليل النادر ، فإن ذلك لا يعدو أن يكون ضرباً من المبالغة والمغالاة ، وخير شاهد على ذلك ما فعله قدماء المصريين عندما بالغ بعضهم فى تكريم المرأة إلى حد أنهم ألَّهُوا « إيزيس » ، ونصَّبوا « حتشبسوت » ملكة وحاكمة عليهم ، وحتى تكتمل الصورة أمام ناظرينا ، فإليك أخى القارئ مقتطفات من الجور النفسى والمادى الذى لاقته المرأة فى دنيا الرجال على مر التاريخ :

**١ - نظرة الإغريق للمرأة :**

لقد بات الإغريق ينظرون إلى المرأة على أنها مخلوق وضيع منحط ، لا تصلح إلا للنسل وتدبير المنزل ، لا على أنها سيدة ، ولكن على اعتبار أن وظيفتها لا تعدو وظيفة الجارية المملوكة .

**٢ - المرأة فى نظر اليونان :**

تنحصر نظرتهم إلى المرأة فى أنها مثار للشهوة فحسب ، ولا سلطان لها على أنوثتها .

**٣ - المرأة عند بعض طوائف اليهود والنصارى :**

كانوا ينظرون إليها على أساس أنها شرٌّ من الأفاعى والأوبئة وسائر الشرور ، ولا تعدو فى نظرهم مرتبة الخادم أو الجارية المملوكة ، حيث كانت تُباع وتُشترى ، وهى مع كل هذا شرٌّ لا بد منه .

**٤ - المرأة فى جاهلية العرب :**

ولقد بلغ هوان المرأة ذروته فى جاهلية العرب هذه ، فلقد كانت تُقْبَرُ على قيد الحياة ، بصورة لا تعدو أن تكون عدواناً على البشرية فى أضعف صورها ، عدوانًا يَسْتَثيرُ الشفقة ، إلى الحد الذى رأينا فيه الألم يعتصر فؤاد رسول الله - ﷺ - عند سماعه لإحدى هذه الفظائع ، فضلًا عن مشاهدتها ، فقد رُوِىَ أَنَّ رجلًا من أصحاب النبى - ﷺ - كان لا يزال مغتمًّا بين يدى النبى ، فقال له الرسول : « مالك تكون محزونًا ؟ » فقال : يارسول الله إنى أذنبتُ ذنبًا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله وإنْ أسلمت . فقال له : « أخبرنى عن ذلك » فقال : يارسول الله إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فَوُلِدَتْ لى بنت فَتَشَفَّعَتْ إلَىَّ امرأتى أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وصارت من أجمل النساء فخطبوها ، فدخلتنى الحمِيَّة ، ولم يحتمل قلبى أن أزوِّجها أو أتْرُكَها فى البيت بغير زوج ،

فقلت للمرأة : أنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابْعثيها معى ، فَسُرَّت بذلك ، وزَيَّنْتُهَا بالثياب والحلى ، وأخذت علىَّ المواثيقَ بألّا أخونَها ، فذهبتُ بها إلى رأس بئر ، فنظرتُ فى البئر ، فَفَطِنَتْ الجاريةُ أنى أريدُ أن ألقِيَها فى البئر ، فالْتَزَمَتْنى ( أى ضَمَّت نفسَها إلىَّ ) وجعلت تبكى وتقول : يا أبتِ ، أىَّ شىء تريد أن تفعل بي ؟ فَرَحِمْتُهَا ، ثم نظرتُ فى البئر فدخلت علىَّ الحميةُ ، ثم التزمتنى وجعلت تقول : يا أبت لا تضيع أمانة أمى ، فجعلتُ مرةً أنظر فى البئر ، ومرة أنظر إليها فأرْحمُها حتى غلَبَنى الشيطانُ ، فأخذتُها وألقيتها فى البئر منكوسةً ، وهى تنادى فى البئر : يا أبتِ قَتَلْتَنِى ، فَمَكَثْتُ هناك حتى انقطع صوتُها فرجعت ، فبكَى رسَول الله - ﷺ - وأصحابُه وقال : « لو أُمِرْتُ أن أعاقبَ أحدًا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك » [1] .

كما سجَّل القرآن الكريم عليهم تلك البشاعة فى عدة مواضع :

قال الله - تعالى :

﴿ وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتْلَ أولادِهم شُركاؤُهم لِيُرْدُوهُم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذَرْهُم وما يفترون ﴾ [2] .

وقال - جل ذكره -:

﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثى ظل وجهه مُسْوَدًّا وهو كظيم * يتوارَى من القوم من سُوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه فى التراب ، ألاساء ما يحكمون ﴾ [3] .

---

(١) تفسير القرطبى : جـ ٧ ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) سورة الأنعام : ١٣٧ .

(٣) سورة النحل : ٥٨ و ٥٩ .

وقال – تقدس اسمه –:

﴿ وإذا الموءودةُ سُئِلَتْ * بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) .

وقال – عز من قائل –:

﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً بغير علم وحَرَّمُوا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ (٢) .

**( ب ) واقع الأسرة فى النظم القديمة :**

لقد كانت العلاقة الأسرية فى النظم القديمة علاقة فردية ، فلم تكن العلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة فى كثير من المجتمعات غيرَ قضاء للشهوة الحيوانية وإنجابٍ للبنين ، وذلك راجعٌ إلى نظرة تلك المجتمعات للمرأة أولا وقبلَ كل شىء ، وهو ما سبق أنْ ألمحْنا إليه ، وحتى تتضح لنا تلك العلاقة جليةً فَسَنُورِدُ جانباً من النماذج التى توضحها فيما يلى :

**١ – واقع النظام الأسْرى لدَى الإغريق :**

كانت المرأة الوَلود تُؤْخَذُ من زوجها بطريق العارية ( الهبة ) لتنجبَ للوطن أولادًا من رجال آخرين غيرِ زوجها ، وكانت قِمَّة المهزلة فى ذلك الوضع الشائن المتردى تتمثل فى إعدام تلك المرأة إذا أنجبت طفلًا دميمًا ، وكأنها ليست مخلوقاً تجرى عليه تصاريف القَدَر ، وإنما هى التى تخلق الأبناء والبنين !!

**٢ – واقع النظام الأسرى فى جاهلية العرب :**

ونستطيعُ إدراكَ ذلك الواقع المهين بسهولةٍ إذا علِمْنا قُبْحَ نظرتهم إلى النكاح ، وأنهم إنما يَصِمُونَ المرأة بالمهانة إذا أنجاها القَدَر من غائلة الوأد حال

---

(١) سورة التكوير : ٨ و ٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٤٠ .

الصغَر ؛ ولهذا فقد تعدَّدَت صورُ نكاح المرأة الواحدة فيما يعرف بـ « أَنكِحَة الجاهلية » .

عن عروة بن الزبير أن عائشة – رضى الله عنها – أخبرته أن النكاحَ فى الجاهلية كان على أربعة أنواع :

الأول : يَخطب الرجلُ إلى الرجلِ مَوْلِيَّتَهُ أو ابنته فَيُصْدِقُهَا ( أى يؤدى صداقها أو مهرها ، ثم يَنْكِحُها ( يتزوجها ) .

الثانى : كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِهَا ( حيضها ) أَرْسِلِى إلى فلان فاسْتَبْضِعِى منه ( أى اطلبى منه الولد ) ويعتزلها زوجُها حتى يتبيَّنَ حملُها ، فإذا تبيَّنَ أصابها زوجُها إذا أَحَبَّ ، وإنما يفعل ذلك رغبةً فى نَجَابَةِ الولد ، ويُسَمَّى هذا النوعُ من النكاح : « الاسْتِبْضَاعُ » .

الثالث : يجتمع الرَّهْطُ ما دُونَ العشرة ، فيَدخلونَ على المرأةِ ، كلُّهُم يُصيبُها ، فإذا حَمَلَتْ ووضعت ومَرَّ عليها ليالٍ أرسَلَتْ إليهم ، فلم يستطعْ رجلٌ أن يمتنع حتى يجتمعوا عندَها ، فتقولُ لهم : قد عَرَفْتُم ماكانَ من أمْرِكم ، وقد وَلَدْتُ ، فهوَ ابنُك يافلانُ ، وتُسَمِّى من أحبَّت باسمه ، فيلحَقُ به ولدُها ، لا يستطيعُ أن يمتنع منهُ الرَّجُلُ .

الرابع : يجتمع ناسٌ كثيرون فيدخلونُ على المرأة ، لا تمتنع عمن جاءها ، وهُنَّ البَغَايَا ، ينْصِبْنَ على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت جُمِعُوالها ودُعُوا القَلَفَه ثم أَلْحَقُوا وَلَدها بالذى يَرَوْن فالْتَاطَ به ( نُسِبَ إليه ) ودُعِىَ ابنُه ، لا يمتنع من ذلك .

فلما بُعث محمد – ﷺ – بالحق هَدَم نكاحَ الجاهلية إلا نكاحَ الناس اليوَم [1] .

---

(١) رواه البخارى .

ومع هذا الوضع المتردى فقد كانت هناك بعض الأفكار الإنسانية المعتدلة ، التى تدعو إلى معاملة المرأة معاملة كريمة ، يتَسَنَّى معها إقامةُ أسرة طيبة ، ويتَّضح لنا ذلك من خلال النصيحتين التاليتين :

• **نصائح « بتاح حوتب » أحد قدماء المصريين :**

وفيها يقول : إذا أصبحتَ رجلًا ذا مركز فأقِمْ لك بيتاً ( أى تزوج ) ، وأحِبَّ زوجَتَك فيه حبًّا خالصًا ، أعطها كفايتها من الطعام واللباس ، واشْتَرِها العِطْر ، وأعِدَّ لها الزيتَ ؛ لأن فيه شفاء أعضاء جسمها ، واجعلها سعيدةً ما دمت حيًّا ، فإن المرأة مرآةٌ لزوجها ، ينعكس فيها ما يبذله فى سبيل سعادتها ، لاتكنْ خشناً فى بيتك ، فاللين يحرك قلب المرأة ، والغلظة تنفِّرُها [1] .

• **قوانين « حمورابى » فى بابل :**

وفيها يقول : إن الزواج ليس إلا تعاقدًا بين الرجل والمرأة ، وإنه ليس للرجل أن يتزوجَ بأكثر من واحدة ما لم تكن عاقرًا أو مريضة بمرض لا أمل فى الشفاء منه ، والرجل مسئول عن ديونها التى تستدينها ، وعن البيت الذى تأوى إليه ، وعن الميراث الذى يتركه لها ولأولادها [2] .

**( جـ ) واقع الأسرة فى النظم الحديثة :**

لقد أضْحَتْ الأسرة فى المجتمعات الحديثه مفككة الأوصال ، وَاهِيَةَ العُرَا ، فهى أوْهَى من بيت العنكبوت ؛ ذلك لأن الحرية قد تحولت فيها إلى استهتار بالقيم الإنسانية ، واستخفاف بأبسط مواصفات الكرامة البشرية ، فانتشرت الفاحشة بين الأبناء بعد استفحالها بين الآباء ، وعمت صور الطلاق والمخادنة وفوضى الإجهاض ، كما طفَحَتْ تلك المجتمعات باللُّقَطاء ، وإليك أخى

---

(١) انظر حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها .
(٢) المرجع السابق .

القارئ طرفاً من الإحصاءات التى تناولت هذه الفوضى الأخلاقية ، وهذا العبث الأسرِىّ :

١ – يوجد فى المجر وحدها ٣٠ مليوناً من حالات الإجهاض سنويًّا ، وهو ما يعادل حالة إجهاض واحدة فى كل ثانية زمنية .

٢ – اكتشفت الشرطة فى اليابان أكثر من ٢٠٠ جريمة قتل أولاد بأيدى أمهاتهم تخلصًا من تبعاتهم ، وذلك فى عام ١٩٨٦ م .

٣ – فى مقاطعة « السين » بفرنسا ، كان واقع الأسرة كما يلى :

( أ ) بلغت حالات فسخ النكاح ٢٩٤ حالة فى يوم واحد .

( ب ) بلغ عدد المطلقين ١٣ مليون حالة فى عام ١٩٨١ م .

( جـ ) بلغ عدد اللقطاء ٥٠ ألف لقيط فى عام ١٩٠١ م

٤ – أما عن واقع الأسرة فى « فرنسا » بصفة عامة فكان كما يلى :

( أ ) بلغت نسبة الزوجات اللاتى لا يرغبن فى الإنجاب ٩٠٪ .

( ب ) كان ارتباط الشباب والفتيات بآبائهم كما يلى :

- بلغت نسبة الشباب الذين يجهلون كل شىء عن والديهم ٧٠ ٪ .
- بلغت نسبة الشباب الذين انقطعت علاقتهم بآبائهم برغم علمهم بهم ٢٠٪ .
- بلغت نسبة الشباب الذين يتمتعون بعلاقة حسنة مع والديهم ١٠٪ [١] .

ونحن ندرك من خلال هذه الصورة وغيرِها مدى ما وصلت إليه الروابط الأسرية فى تلك المجتمعات من فردية وذاتية وانحلال وذوبان ، إنها بحق وصدق

---

(١) مجلة الأمة ، عدد (٧٠) السنة السادسة .

صورة قاتمة ، تنبئ عن خطر فادح وخطْب أليم مُنِيَتْ به البشرية فى تاريخها الحديث ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ظهَر الفسادُ فى البر والبحر بماكسبت أيدى الناس ﴾ (١) . ويمكننا مطالعة هذه الصورة واضحة جلية على قسمات وجه شيخ أو أم عجوز ، لمحت عيناها قطةً أو كلبًا فانحنتْ تداعبه بكل عطف ورقة وتربتُ ظَهْرَهُ ، فقد وجدت فيه ضالتها المنشودة ، وبُغْيَتَهَا المفقودة ، وقد ترقرقت فى عَيْنَيْهَا دموع الأسَى والحسرة على تلك العلاقات المفقودة فى دنيا البشر ، وكثيراً ما تنشأ صداقات حميمة بين الإنسان وبين هذه الحيوانات وغيرها ، كالحمير ، كما يتفننون فى الإغداق عليها عطاءً وحُبًّا ورعاية ، فيوفرون لها من أسباب الراحة الشيء الكثير ، مما لا يظفر به – فضلًا عن أن يحلُم بمثله – كثير من الناس ، ولم ينته بهم الأمر إلى هذا الحد ، بل إنهم أسسوا الجمعيات الخيرية لرعاية هذه الحيوانات ، وأغْدَقَ الخيرون عليها تبرعاتهم ، بغرض رعايتها وتحسين مستويات معيشتها ، كما أنشئوا لبعضها المقابر الخاصة التى تضم رُفَاتِهَا ، بل وجنح بهم الخيال إلى مطالبة حكوماتهم بجعل هذه الأماكنَ أماكن أثرية ليفيد منها البشر .

إن البشرية قد ارتكست وانتكست ، واختلطت عليها أوراق كل شيء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ (٢) .

ولكى تتضح لنا معالم هذه الصورة الهزلية أكثر وأكثر فإننى أسوق لك أخى القارئ مقتطفاتٍ من مقالات بعض الصحف السيارة ، ثم نتبع ذلك بالتعليق والتعقيب على نحو ما يلى :

---

(١) سورة الروم : جزء من الآية ٤١ .

(٢) سورة التين : ١ – ٦ .

• **الحمير تكسب فى بريطانيا :**

نشرت جريدة أخبار اليوم فى يوم السبت ١٩٨٩/١٠/٢١ م مقالًا تحت العنوان السابق ، وجاء فيه : تؤكد الدراسات أن الحمير أحسن حظًا وأسعد حالًا من الإنسان فى بريطانيا ، فهى تفوز بنصيب الأسد من التبرعات التى يمنحها أثرياء إنجلترا فى وصاياهم للأعمال الخيرية . فقد تأسست إحدى جمعيات الرفق بالحمير منذ نحو ٢٠ عامًا فى مدينة « دنفون » وتلقت هذه الجمعية تبرعات من ٥٨٢ شخصاً خلال عام ١٩٨٨ قُدِّرَتْ بحوالى ٢,٢ مليون جنيه استرلينى ، وبما أن هذ الجمعية ترعى ٤ آلاف حمار ، فإن نصيب الحمار الواحد من هذه التبرعات يصل إلى ٥٥٠ جنيها إسترلينيًّا ( حوالى ٢٢ ألف جنيه مصرى ) . وتقول مديرة الجمعية : إن خدماتها تمتد للحمير فى الدول الأخرى مثل : كينيا ، وأثيوبيا ، حيث تعتمد شعوبها على الحيوانات القوية فى القيام بأعمالهم ...

كما قامت فى ألمانيا الغربية جمعية أصدقاء الحمير التى تَبَنَّتْ قضية غريبة ، حيث أثبتت للحمار الذكاء ونفت عنه الغباء !! كما يعلن بعض المتبرعين عن وقف ثرواتهم للحيوانات بدلا من الأقرباء ؛ لأن الناس – وخصوصًا أقاربهم – يُهْمِلُونَهُمْ فى أواخر أيامهم ، أما الحيوانات فتمنحهم الصحبة الحلوة والمتعة بدون انتظار مقابل .

وتشير الإحصائيات إلى أن جمعيات رعاية الحيوان قد حصلت مجتمعة خلال عام ١٩٨٨ على أكثر من ٢٢ مليون جنيه إسترلينى ( حوالى ١٢٨ مليون جنيه مصرى ) ، فى حين تلقى مركز أبحاث السرطان مبلغ ١٢,٧ مليون جنيه إسترلينى فقط .

وتلقت جمعية رعاية الكلاب المستخدمة لإرشاد المكفوفين ١٢,٨ مليون جنيه إسترلينى فى نفس العام ، وتلقى مستشفى علاج الحيوانات مبلغ ٨,٨ ملايين جنيه إسترلينى ...

• **مقبرة كلاب باريس مَعْلم أثرى وأسطورى :**

وإذا ما تركنا الحمير البريطانية تنعم بثرواتها الطائلة ، فإننا نجد تقليعةً أخرى فى باريس ، إنها مقبرة تضم رفات الكلاب ، وهذه المقبرة تقع على ضفاف نهر السين شمالى باريس ، ولقد أُنشئت هذه المقبرة منذ قرن من الزمان تقريباً ، وتضم نصباً تذكاريًّا لبطل أبطال الكلاب وهو الكلب « بارى » ، الذى كان يعيش فى دير فوق جبال الألب ، وقد تعرضت مجموعة من متسلقى الجبال إلى الهلاك فأنقذهم ذلك الكلب ، وقام آخرهم نجاة وهو الشخص رقم ٤١ بضرب هذا الكلب بمِعْوَل صغير ، وعاد الكلب ليموت فى الدير ، وكان جزاؤه جزاء سِنِمَّار ، ومن أجل هذه البطولة فقد أقيم له نصب تذكارى يُخَلِّدُ ذكره ، ويُذَكِّرُ ببطولته ، كما كان ذلك فتحاً ونصرًا للموتى من بنى جنسه ...

ويقدر عدد الحيوانات التى دفنت فى تلك المقبرة بأكثر من ٥٠ ألف حيوان ، مابين قط وكلب ، ونظرًا لتأثر هذه المقبرة بمياه نهر السين فقد ثار الرأى العام الفرنسى لذلك ، وتكونت جمعية لأصدقاء المقبرة ، وطالبت السلطات الفرنسية بإنقاذ المقبرة ، حيث يلزم لترميمها نحو ٥ ملايين فرنك فرنسى ، كما طالبت الجمعية بجعل المقبرة معْلمًا أثريًّا ، بل وأسطوريًّا .

ومن الطريف أن كلب ملكة « رومانيا » تم دفنه بهذه المقبرة عام ١٩٥٣ م ويبلغ سعر دفن الحيوان بها ٥٠٠ فرنك فرنسى ، يُضَافُ إليها ٧٠٠ فرنك سنويًّا مقابل تجديد عقد الإيجار ، وقد كتبت على المقابر تعليقات عزاء من أصحاب هذه الحيوانات تدل على ما يعتمل فى نفوسهم من حسرة ولوعة وضياع ، ومن أمثلة ذلك : خدعنى البشر ولم يخدعنى كلبى [1] .. .

---

(١) جريدة أخبار اليوم ( بتصرف ) ، أكتوبر ١٩٨٩ م .

• **كلبة ترعى طفلًا :**

كشفت صحيفةُ ( صنداى إكسبريس ) البريطانيةُ عن تفاصيل قصة غريبة ، جرت وقائعها فى مدينة ( استن الألمانية ) ، فقالت : إن والدى الطفل ( هورست رنهارد ) قد أدمنا الخمرَ إلى حدٍّ أنهما هجرا منزلهما وتركا وحيدَهما الصغيرَ وحيدًا مع كلبة تدعى ( إستا ) التى سهرت على رعايته ، ولكن كما تفعل الكلاب مع صغارها ، ولما علم رجال البوليس بذلك اقتحموا المنزل ، وكانت المفاجأة أنهم وجدوا الطفل يلتهم دجاجة نيئة أحضرتها له الكلبة ، فقاموا بإلحاقه بأحد الأديرة ، تحت رعاية راهباته ، وقد بلغ الطفل سنَّ الخامسة ، ولكنه لم يتعلم الكلام بعد ، ومازال يصدر أصواتاً تشبه النباح ، ولا يتفعل بما يراه حوله ... [1] .

وتعليقنا على هذه الواقعة ما قاله الأول :

عَوَى الذئبُ فاستأنست بالذئب إذْ عَوى
وصَوَّت إنسانٌ فكِـــدتُ أطِيـــرُ

**الكلب المليونير يشترى فريق كرة قدم !**

ورث كلب إيطالى ثروة قيمتها ١٢٥ مليون دولارًا من صاحبته الكونتيسة كارلوتا ليبيشاتى! الكلب ويدعى «جونتر الرابع» هو الوريث الوحيد للكونتيسة التى توفيت وتركت وصية تشترط فيها على الكلب أن يقوم من سيتولَّون رعايته وشئون حياته بشراء فريق كرة قدم قبل نهاية عام ١٩٩٤م.

هذا الشرط الذى وضعته الكونتيسة سببه أن ابنها الوحيد الراحل كان لاعب كرة قدم ولقى حتفه فى حادث مروع، وأرادت من خلال وصيتها أن يرعى وريثها «الكلب» فريق كرة بأكمله!!

بهذه الثروة يكون الكلب الإيطالى جونتر قد حطَّم الأرقام القياسية فى عالم الحيوانات الثرية التى ورثت أصحابها. وكان أعلى رقم من قبل هو أربعة ملايين دولار. ورثتها قطة إيطالية تسمى «كينى»[2].

---

(١) أخبار اليوم عدد ١١٦٥٥ السنة (٣٨) ١٩٨٩/٩/٢٠ م .

(٢) أخبار اليوم بتاريخ السبت ٥ يونيو ١٩٩٣ .

**التعليـــق :**

يتضح لنا من خلال تلك الصورة التى عرضناها لك عن تلك المجتمعات التى أعرضت عن هدى السماء ، واغترت بعقولها القاصرة ، فسادتها فَوضى التحلل والانحلال الأسرى ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا ، وأضْحَوا يضربون فى بيداء الجهالة ، وراحوا يخبطون فيها خبط عشواء ، ﴿ وما ظَلَمَهم اللهُ ولكنْ أنْفُسَهُم يظلمون ﴾ (١) .

وتلك هى الملامح العامة لتلك المجتمعات نوجزها فيما يلى :

١ – إن هذه المجتمعات – وإنْ كانت تجد الطعام والشراب والملبس والمسكن ، بل وتحيا حياة مادية رافهة – قد فقدوا أنفسهم وذواتهم فى خضم تلك الحياة العابثة اللاهية ؛ وذلك لأنهم فقدوا أعظم شىء فى هذا الوجود ، فقدوا السكينة والرحمة ، وتلك غايات لا تتحقق إلَّا بامتثال أمر الله واجتناب نواهيه ، وهى ما تحفل به شريعة الله ، وعليه ، فقد باتوا يُصَدِّرُونَ القلقَ والتوتُّر للمؤمنين بالله فى صور شتى ، من السموم المخدرة ، ووسائل التقنية اللاهية العابثة ، التى تقتل الوقت وتدمر القيم ، وتُغرى بالجريمة ، وتجعل الحياة فارغة من المحتوى ، خالية من المضمون .

٢ – إن واقع هذه المجتمعات واقع قَلِقٌ ، والإنسانية فيها تتخبط فى دَيَاجِير الظلام ، تلْهث وراءَ سرَاب من الوَهْم ، كلما اقتربت منه شبرًا ابتعد عنها أميالًا ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعَةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب * أو كُظُلماتٍ فى بحر لُجِّىٍّ يغشاهُ مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من

---

(١) سورة آل عمران : ١١٧ .

فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يَدَهُ لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [1] .

إنهم يحيون حياة جافَّة خالية من عناصر المودَّة ومكارم الأخلاق ، ولا أدل على ذلك من أنهم قد أَضْحَوْا يلتمسون الرحمة عند الحيوان ، حيث لا يجدونها فى دنيا الإنسان ، فراحوا يخطبون وُدَّ القطط والحمير والكلاب ، كل ذلك فى صورة مادية بغيضة تَنِمُّ عنها تعليقاتهم ، حيث يقولون : إن هذه الحيوانات تمنحهم الصحبة الحلوة بدون مقابل .

٣ – إنهم يأتون من الأفعال والتصرفات مالا يستند إلى منطق ولا يحتكم إلى عقل ، فعلامَ يُصادِقُون الحمير ؟ وعلامَ يرفعون عنها خسيسة الغباء ؟ وعلام يوقفون عليها الأموال الطائلة ؟ ...

كل ذلك فى الوقت الذى تعانى فيه كثير من دول العالم الفقر والفاقَةَ ، بل والحرمان حتى من ضروريات الحياة ، كل هذا أيضًا فى الوقت الذى لا تعدو فيه هذه الحيوانات أن تكون مخلوقات مُسَخَّرةً لخدمة الإنسان إذا احتاج إليها ، وفى ذلك يقول الله – تعالى –:

﴿ والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمالٌ حين تُرِيحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ [2] .

---

(١) سورة النور : الآيتان ٣٩ و ٤٠ .

(٢) سورة النحل : ٥ – ٨ .

ويقول أيضاً :

﴿ مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أَسْفَارًا بئس مثل القوم الذين كَذَّبُوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (١) .

كما يضرب المثل بحيوان أخس من الحمار لكل من أعرض عن ذكر الله ، يقول تعالى :

﴿ وَاتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فَانْسَلَخ منها فَأَتْبَعَه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كَذَّبُوا بآياتنا فَاقْصُصِ القَصَصَ لعلهم يتفكرون ﴾ (٢) .

٤ – إن تصرف القوم فى أموالهم بالوصية إلى هذه الحيوانات نوع من السَّفَهِ أو هو السفه بعينه ، فلو استقامت فطرتهم لأَصْغَوا لقول الله – تعالى –: ﴿ وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولو القُرْبَى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولًا معروفاً ﴾ (٣) .

ولكن الحقيقة أنه أصبح يصدق عليهم قول القائل :

إذا الإيمان ضاع فلا أَمَانٌ ولا دنيا لمن لم يُحْيِ دينَا
ومَنَ رَضِى الحياةَ بغير دينٍ فقد جعل الفناء لها قريناَ

٥ – إنَّ تصرفهم هذا مع الحيوان تصرف شائهٌ مَعِيبٌ ؛ ذلك لأنه تصرف مبنى على الهوى والغرض ، فهم يتخذون من التحريش بين حيوانات أخرى والتمثيل

---

(١) سورة الجمعة : ٥ .
(٢) سورة الأعراف : ١٧٥ و ١٧٦ .
(٣) سورة النساء : ٨ .

بها لَوْنًا من ألوان التسلية والتلهية ، فيما هو معروف لديهم بمصارعة الدِّيَكَة والخَراف والثِّيران ، إلى الحد الذى تسيل فيه دماؤها ، بل وتُزْهَقُ أرواحها ، فكل ذلك لا يعدو أن يكون لوناً من ألوان المُثْلَة بالحيوان ، فلو كانت مقرراتهم ومناهجهم صادقةً – ولن تكون – لَاسْتَقَامَتْ تصرُّفَاتُهم ، ولساد رِفْقُهُم جميعَ خلق الله ، ولكنه اتباع الهوى فى غير ذات الله ، واختلاط أوراق كل شيء ، بل وتبعثرها ... !!

وأمام هذه الصورة الهزلية نقدم تعليق فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى بيانه بمناسبة بدء العام الرابع عشر من القرن الخامس عشر الهجرى؛ حيث قال مانصه: «.. والإنسانية فى كل العالم تهزل وتلهو، ولايؤرقها هذا الهول، ولايوقظ إنسانيتها ذلك الظلم، ولو سمعوا عُواء كلب، أو مُواء قط، لَغَدَوْا إليه بالطائرات، وربما بالمركبات الفضائية، رحمة وحنانا، ولكنهم بالإنسان المسلم أشد قسوة وظلما، ثم مع هذا يتنادون إلي السلم والسلام، وهم يبتغون بنداءاتهم الاستسلام، فإلى متى هذا التجاهل للمواثيق الدولية وحقوق الإنسان!!؟»

حديث جريدة الأخبار، الأحد ٢٠ يونيو ١٩٩٣.

**التعقيب :**

إن أوضح ما نعقب به على هذه الصورة بعد التعليق عليها هو موقف الإسلام حيال هذه القضية الجوهرية ، والذى نستطيع تلخيصه فيما يلى :

١ – لقد وضعت شريعة الإسلام الأمور فى نصابها ، فلا إفراط ولا تفريط ، كل ذلك من خلال قانون الرحمة العامة التى تتعدى حدود النوع البشرى لتنتظم سائر الحيوانات ، ممثلًا فى ذلك السؤال الموجه إلى رسول الله – ﷺ – أَئنَّ لنا فى البهائم لأجرًا ؟ قال : « نعم ، فى كل ذات كبدٍ رَطْبَة صدقة » .

٢ – إن مقررات الرفق بالحيوان ميدان رحب فسيح فى دين الله ، لا يقل وضوحا فى المنهج العملى عنه فى المنهج النظرى ، فهناك النصوص التى تأمر بالرفق ، مع النصوص التى تنهى عن الشدة والعسف ، كل ذلك مع الأفعال الرشيدة ، والتصرفات الحميدة التى تنصف هذه المخلوقات ، ونحن نجتزئ من هذه المواقف بما يلى :

**( أ ) الدعوة القولية إلى الرفق بالحيوان :**

• ويقول رسول الله ﷺ : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » .

• ويقول أيضا : « من مَثَّل بذى روح ثم لم يتب مَثَّلَ الله به يوم القيامة » .

**( ب ) الدعوة العملية إلى الرفق بالحيوان :**

• كان رسول الله – ﷺ – يَدُقُّ الشعيرَ لبغلته « دُلْدُل » حينما سقطت أسنانها وكُفَّ بصرُها .

• كان النبى – ﷺ – يُمِيلُ الإناءَ للهرة فى بيته لتتمكن من رى ظمئها .

• مرَّ رسول الله – ﷺ – فوجد حمارًا قد وُسِمَ فى جبهته ( تم كَيُّه بالنار فى وجهه ) فقال : « لَعَنَ الله الذى وسَمَه » .

• رأى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – رجلًا يسحب شاة من رجلها ليذبحها ، فقال له : « ويلك قُدْهَا إلى الموت قَوْدًا جَمِيلًا » .

• عَشَّشَتْ حمامةٌ بُفُسْطَاط ( خيمة ) عمرو بن العاص إبَّان الفتح ( أى فتح مصر ) ، فلما أراد الانصراف لم يهِجْهَا بتقويض الفسطاط ، ولكن تركه من أجلها ، فكان ذلك سببًا فى تكاثر العمران حوله ، وقامت مدينة كبيرة عرفت فيما بعد باسم مدينة الفسطاط .

**( جـ ) الرفق بالحيوان فى الأحكام الفقهية :**

• نفقة الحيوان واجبة على مالكه .

• إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه إذا لم تقدر على الانصراف .

• يحظر تحميل الدواب أكثر من طاقتها ، كما يحظر تعذيبها وضربها وتجويعها ، وكان من بين مهام المحتسب ( المفتش ) مراقبة الالتزام بهذه المبادئ .

• أنشئوا وقفاً للكلاب الضالة حيث توضع فى أماكن مخصصة لرعايتها ، استنقاذًا لها من الجوع حتى تستريح إمَّا بالموت أو بالاقتناء .

وهذا غيض من فيض ...

فأى صورة أبهى وأنصع من هذه الصورة ؟! ...

لك أن تتصور ديناً تصل سماحته فى الرفق بالحيوان إلى هذا الحد ، كم تكون دعوته للرفق بالإنسان ؟! .

* * *

## ثانيًا : واقع النظام الأسرى لدى المسلمين :

### ( أ ) المرأة :

لقد تبوأت المرأة فى ظل الإسلام وتعاليمه مكانة لم تَحْظَ بمثلها فى أى نظام اجتماعى آخر مِمَّا تواضع عليه الناس ، حيث قدَّرَهَا الإسلامُ حقَّ قدرها ، وفتح أمامها أبواب المثل العليا والقيم الأخلاقية الرفيعة ، فهى تمثل نصف المجتمع الإنسانى ؛ إذْ النساءُ شقائق الرجال ، والمرأة بالنسبة للرجل : أُمٌّ ، أو ابنة ، أو جدة ، أو أختٌ ، أو خالة ، أو عمة ، ويكفى أن نشير إلى جملة من النصوص والوقائع التى يتجلى لنا من خلالها أن الإسلام قد أعْلَى من قَدْرِ المرأة ورفع عنها خسيستها فيما يلى :

**القرآن :**

• يقول الله – تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخَلَق منها زَوْجَها وبَثَّ منهما رجالًا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (١) .

• ويقول عز من قائل :

« إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعَدَّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٥ .

• ويقول الخلاق العليم :

﴿ ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مَوَدَّةً ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

• ويقول جل ذكره : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحَفَدَة ... ﴾ (٢) .

**السنة المطهرة :**

كما جاءت السنة المطهرة فكانت الصدى المتجاوب مع القرآن الكريم ، فلم تدع شيئًا من شأنه إعلاءُ شأن المرأة إلا وأبرزته ، وبَيَّنَتْهُ ووَضَّحَتْهُ ، سواء فى مجال العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو الإرث ، كل ذلك فى وضوح واضح ، وبيان بَيِّن ، وجلاء جلِىٍّ ، يفوقُ الشمس فى رابعة النهار ، وإنى موردٌ طرفاً من هذه النصوص فيما يلى :

• روى الطبرانى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ : « ما أفاد عبد بعد الإسلام خيراً له من زوجة مؤمنة إذا نظر إليها سرته ، وإذا غاب عنها حفِظته فى نفسها وماله » (٣) .

• وقال رسول الله – ﷺ – : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مُبَاهٍ بكم الأُمَمَ يوم القيامة » (٤) .

• ويقول أيضاً : « تزوجوا الولودَ الوَدُودَ فإنى مكاثر بكم الأمم (٥) » .

---

(١) سورة الروم : ٢١ .

(٢) سورة النحل : جزء من الآية ٧٢ .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى حـ ٤ ص ٢٧٢ .

(٤) رواه البيهقى .

(٥) رواه أبو داود والنسائى والحاكم .

• ويقول رسول الله – ﷺ – : « ما اسْتفادَ المؤمنُ بعدَ تقْوى الله – عز وجل – خيرًا له من زوجة صالحة ، إنْ نظر إليها سرَّته ، وإن أمرَها أطاعته ، وإنْ أقْسَم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها حفِظته فى نفسها وماله [1] » .

## ( ب ) فلسفة الزواج وتكوين الأسرة فى الإسلام :

إن مفهومَ الزوجية فى الإسلام يعتبر سرَّ وجود هذا العالم ، فكل ما نراه فى هذا الكون من بديع صُنع الله مُؤَسَّسٌ على هذه العلاقة ، يستوى فى ذلك الحيوان والجماد والنبات ، يقول الله – تعالى : ﴿ ومن كل شيءٍ خَلَقْنَا زوجين لعلكم تَذَكَّرُونِ ﴾ [2] . وذلك أمر يقتضى تقديسَ الله وتنزيهَهُ ، قال تعالى : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلَّها مما تُنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [3] .

والنوع الإنسانى كَرَّمَهُ الله تعالى ، فقد خلق الله آدم بِيديه ، ونفخَ فيه من رُوحه ، وعلمَه الأسماءَ كلَّها ، وأسَجَد له ملائكته ، وكرَّمَهُ وفَضَّلَهُ على كثير من خلقه تفضيلاً : ﴿ ولقد كَرَّمْنَا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلْناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [4] . فالنوع الإنسانى – لكل هذا وغيره – أهل لِمُسَاوَقَةِ هذه السنة الكونية التى تَتَوَافَقُ معَ الفطرة وتَأْتَلِفُ معها ، كما أن النظام الأُسْرِىَّ هو الوسيلةُ الوحيدة التى تضمْن امتدادَ العنصر البشرى وبقاءَهُ وحمايته من الانحلال والذوبان ، وتُحَصِّنُه ضدَّ الهزَّات الاجتماعية

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) سورة الذاريات : ٤٩ .

(٣) سورة يس : ٣٦ .

(٤) الإسراء : ٧٠ .

العنيفة ، ففى ظل هذه العلاقة يَنْعَمُ الإنسانُ بالمزايا التالية :

**١ - تكوين شخصية الإنسان :**

للزواج أثرٌ كبيرٌ فى تكوين شخصية الإنسان ، بل وصياغته على نحو جديد ، ففيه الحفاظُ على صحته ، والإبقاءُ على نَسْله ، واستعلاءُ صفاتِ الخير فيه ، فهو وضع فِطْرى ارتضَاه الله وبيَّن مقوِّمَاته ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رُسَلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ (١) .

**٢ - تقويةُ روابط الأُخُوَّة :**

تحظى البشرية فى رحاب إقامة هذه العَلاَقة بتوكيد روابط الأُخوة ، وتوسيع دائرة المعرفة بين الأفراد والشعوب ، تحقيقاً لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن اللهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾ (٢) .

وتحقيقاً لقول رسول الله - ﷺ - : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يُسَمَّى فيها القيراطُ ، فإذا فتحتُموها فأَحْسِنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذِمَّةً ورحمًا - أو قال ذِمَّةً وصِهْراً » (٣) .

**٣ - فيه حماية المجتمع من التلوث وصيانة الأنساب :**

ففى الزواج حمايةُ المجتمع من التلوث والانحراف والشُّذُوذ ، وبالتالى حمايته من المخاطر والأمراض والأوبئةِ التى يُسلطها الله على المجتمعات المنْحَلَّة ، يقول رسول الله - ﷺ : « ما ظهرت الفاحشةُ فى قوم يُعْمَلُ بها فيهم علانيةً إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجَاع التى لم تكن فى أَسْلافهم » (٤) .

---

(١) سورة الرعد جزء من الآية : ٣٨ .
(٢) سورة الحجرات : ١٣ .
(٣) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصيته بأهل مصر.
(٤) رواه البيهقى وأخرجه الحاكم .

**٤ - تحصيل الأجر من الله :**

فعن أبى أُمَامَةَ أن رسول الله - ﷺ - قال : « من أنفقَ على امرأته وولده وأهلِ بيته فَهِىَ صدقة » (١) .

وفى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « دينارٌ أنفَقْتَه فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رَقَبَةٍ ، ودينار تصدَّقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلِك ، أعظمُها أجرًا الذى أنفقته على أهلك » .

لكل هذا وغيره ، حرص الإسلام على رعاية الأسرة رعايةً كريمةً ، ووضع لها مقومات النجاح والاستمرار ، كما اهتم بتوثيق عُرَاهَا ، وتدعيم بنيانها ، وحمايتها من جميع المؤثرات التى تُضْعِفُ كِيَانَها .

* * *

(١) رواه الطبرانى .



openkandl.com